بقائها هناك بعد أن كمل شفاؤها، واستردت عافيتها. وحينما وجد من «حور» ومن طبيب الأميرة موافقة على آرائه، أصدر أمره الذى لا يرد بعودة الأميرة إلى جناحها فى قصر أبيها، وبانتهاء عهد الغابة وجولاتها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

☆☆☆

فلما كانت الليلة الثامنة قالت:

كان الصباح التالى — يا مولاى — مفرق الطريق بين عهدين للأميرة والملك والمملكة جميعاً ... لقد صبَّح المدينة عدو مغير من الشمال، فاجأ الحاميات المبعثرة فقضى عليها، وتدفق على المدينة تدفقاً، فخرج الفرسان للقتال والدفاع. وعندئذ لم يبق مجال لتوسلات الأميرة ورجائها، فلقد ذعرت حينما علمت بقرار أبيها، ولكنها لم تيأس من رجعته عنه لما تعلمه من إعزازه لها وتدليله إياها. ولكن هذا الحادث الذى صبّح المدينة قطع الطريق على كل قول، وزحم المجال على كل رجاء، فلم يعد هناك موضع إلا للحرب التى تهدد الجميع، ولم تعد الغابة مجال رياضة ومراد نزهة إنما هى مكان للقتل والقتال، ولقعقعة السيوف وتكسر النصال.

أما الفتى الراعى فلم تعد تعلم عنه شيئاً، وما عاد هو يعلم أين

ذهبت ، فالحرب دائرة بأقصى سرعتها ، والجيش المغير يستغل المفاجأة إلى نهايتها ، والجميع فى كرب وهم ، اللهم إلاّ قلباً واحداً نزلت عليه هذه الحرب برداً وسلاماً ، وطمأنينة وأمناً . ذلك قلب الفتاة الراعية التى استردت منذ اليوم حبيبها وخطيبها !

ودارت رحى الحرب أيامــاً ، وفوارس المدينة يدافعون كالأبطال عن مدينتهم المهددة ومملكتهم المحطمة ، ولكن المفاجأة الأولى جعلت للمغيرين الكفة الراجحة ؛ وكلما مضى يوم بانت الغلبة فى صفهم والهزيمة فى صف المدافعين ؛ فما انقضت عشرة أيام حتى اضطر هؤلاء إلى التقهقر والاحتماء بأسوار المدينة بعد تغليق أبوابها ؛ وضرب المغيرون الحصار عليها ، وعادت الحرب تراشقاً بالسهام والنبال ، حيثما أتيحت للفريقين فرصة وغفلة .

ولكن هذه الحال قد طالت على المدينة فامتنعت عنها الأقوات وأصبحت مهددة بالجوع إذا نفد منها المخزون ، فعم الكرب ، وزاد الهم ، وبات الملك ورجاله فى أسوأ حال . . . إلا أن خاطراً واحداً كان يعزيه بعض العزاء : لقد ألهم إلهاماً أن ينهى حياة الأميرة فى الغابة قبل الغارة بليلة واحدة ؛ ولو تأخر لذهبت أسيرة فى قبضة المغيرين ، ولتحققت النبوءة كاملة ، فالأسر هو

الحياة التى لا حياة فيها ، وهو الموت الذى لا موت فيه : «لن تكون ميتة ولكنها لن تكون فى الأحياء » . تلك هى النبوءة المحيرة تتكشف اليوم عن بديهية ظاهرة . حياة الأسر هى هذه الحياة، بلا جدال . ولقد نجت منها الأميرة ، إلا أن تتحطم الأسوار ، أو أن يرغمهم الجوع على الاستئسار !

وعندما وصل فى تفكيره إلى هذا الحد اضطرب فؤاده من الخوف والقلق فما الذى يمنع أن تتحقق النبوءة التى صارت واضحة مكشوفة ، ما دام الحصار قائماً والمدينة مهددة ؟ وفى حرارة القلق أمر أن ينادى فى المدينة وأن يهتف على أسوارها :

— من استطاع أن يرد العدو المغير ، وينقذ المدينة من الدمار ، فله على ذلك مكافأة نادرة : سيتزوج بنت الملك ، ويصبح ولياً للعهد . . .

وانطلق المنادون يتصايحون فى المدينة بهذا النداء ، ويرفعون عقيرتهم فوق الأسوار ليسمعهم من فى خارج المدينة من أهل المملكة القريبين .

ومضت ثلاثة أيام لم يتقدم أحد لينال هذا الفوز الذى كان يبدو حلماً من الأحلام ، حتى يئس الملك من الفرج ، وكاد يأمر

بفتح الابواب ، ولكن شمس اليوم الرابع أشرقت، و إذا بشاب يتقدم إلى الملك يقول :

— أنا يا مولاى أتعهد بكسر الأعداء !

لم يكن ذلك إلا الفتى الراعى ، وقد سمع النداء من أسوار المدينة ، وكان فراق الأميرة وانقطاعها قد كاد يجنه ، فظل يبحث و يسأل حتى علم بعودتها إلى قصر أبيها ، فانقطع كل رجاء له فيها وتمزق قلبه من الحسرة ، ثم ركن أخيراً إلى اليأس ، حتى سمع المنادى ، نخفق له قلبه خفقة شديدة ، واعتزم أن يموت أو يفوز بما لم يخطر له فى الأحلام ، وظل يحتال ثلاثة أيام ليدخل المدينة حتى سمح له الحراس بالدخول بعد أن استوثقوا من غايته ، وجاءوا به إلى الملك ليعرض عليه حاجته ! وسر الملك سروراً عظيما بوجود هذا الشاب الشجاع ،ولكنه قال له :

— من أين لك أن تحاربهم وأنت وحيد ، فهل نجهز لك جيشاً ممن بقى من المدافعين ؟

قال الفتى :

— لا يا مولاى . لا أريد معى أحداً إلا الكوكبة التى كانت تحرس الأميرة فى الغابة ، ففيها البركة والكفاية !

ولما كانت هذه هى الفرصة الأخيرة أمام الملك ، فقد أجاب طلبه ، ودعا له ولجماعته بالنصر المؤزر ، وارتفعت أكف الجميع بالدعاء ، وتعالت أصواتهم بالهتاف ، وهم يشيعونهم إلى الأبواب

وانطلق الفتى — يا مولاى — بجماعته الصغيرة ،وقلبه يطفح بشراً ، ونفسه واثقة من الغلبة ، فهو يندفع بألف عزم وعزم ويخيل إليه أن فى مكنته دك الجبال ، وتبديل الأحوال . . . وسرى هذا الشعور إلى نفوس رفاقه، فانقلبوا أسوداً هائجة تذود عن العرين المهدد ، فلما ترامى إلى المغيرين نبأ هذه الكوكبة الصغيرة الخارجة لقتالهم هزئوا وسخروا،وأقبلوا عليهم غير مكترثين بهم يحسبونهم صيداً سهلا .

ولكن لم تمض دقائق حتى علموا : أى أبطال يقاتلون . فلقد تصرع منهم عشرات الفرسان فى الميدان ، فأفاقوا ، وبدءوا ينظرون إلى خصومهم القلائل نظرة جديدة ، ويحملون عليهم حملة صادقة . . . ولكن الفتى راح يصول ويجول ويصرخ ويهدر ، ويقتل ويجندل ، والغبار ثائر والمعركة فائرة ، حتى أطاح منهم الرءوس وشتت الجموع ، وألقى الرعب فى القلوب ، وهو يهدر فى ثورة واندفاع ، وكأنما هو غائب عن الوجود . . حتى أقبل الليل

فتحاجز الفريقان ، وعاد الفتى بفرسانه إلى المدينة لم يتخلف منهم سوى اثنين صرعا فى الميدان ؛ فاستقبلته المدينة كلها بالفرح إذ كان المراقبون على الأسوار يراقبون المعركة ويعلمون الملك بسيرها طول النهار . فلما لقيه استقبله مرحباً وضمه إلى صدره مشجعاً .

وأصبح الصباح فبرز الفارس وجماعته ، وبرز له من المغيرين شجعانهم وفرسانهم ، فما زال يكرر وقائع اليوم الأول ويزيد حتى أوشك المغيرون على الهزيمة . لولا تشددهم بكثرة العدد وخوف الفضيحة . فما أمسى المساء حتي بادروا بالاحتجاز .

وكان يوم ثالث ورابع وخامس ، ثم رجحت الكفة نهائياً ونوى المغيرون الفرار ، فتماسكوا حتى جن الليل ، ثم أقلعوا مولين الأدبار . فما أصبح الصباح حتى كانوا قد أبعدوا إلى الشمال ، فانطلقت فى المدينة الزغاريد ، وعلت الأهازيج ، وراح أهل المدينة يتعانقون فى الطرقات ، ويتبادلون التهانىء فى بشر وانشراح .

ولم يبق إلا أن يفى الملك بما وعد ، وأن ينال الفتى حلمه البعيد واستقر الرأى على أن يتم ذلك بعد ثلاثة أيام ، وأن يهيأ استقبال حافل رائع للبطل المنقذ ، فيبيت هذه الليالى خارج المدينة حتى

تأخذ زينتها وتستعد لاستقباله ، فإذا كان اليوم الرابع دخلها مع طلعة الشمس كما دخلها أول مرة ، حيث يذهب إلى القصر الملكى فتستقبله كذلك الأميرة . . .

ومضى الفتى يحلم — يا مولاى — حلمه السعيد البعيد ، ومضت المدينة تتهيأ لاستقباله ، والأميرة تكاد تطير من الفرح بعريسها البطل ، وبحبيبها القديم . ولم يحس الجميع أن هناك قلباً يتمزق ونفساً تتحرق ، وأن هناك إنسانة تحس لذع الجمر ولدغة الأفعى وعذاب الجحيم .

تلك الفتاة الراعية — يا مولاى — التى كانت مولهة بابن عمها الراعى ، والتى أمست وأصبحت فإذا آمالها التى عاشت بها ، وأحلامها التى داعبتها ، وحياتها كلها التى أقامتها ، تتحطم وتتناثر فى عنف وقسوة دون أن يشعر بها أحد من الناس ، فالجميع منصرفون إلى الاستعداد لليوم العظيم الذى سيقضى عليها القضاء الأخير . .

ماذا تصنع وهى وحيدة فريدة أمام التيار الجارف الذى لا يحس بوجودها ، ولا يعنى بآلامها ، ولا يفكر فيها أقل تفكير تصرخ ؟ تولول ؟ تنطلق كالمجنونة تنادى فى كل مكان : أيها الناس اسمعوا . إن هنا مخلوقة آدمية تدوسونها كالنمال . . ولكن

ما فائدة هذا كله ، ولن يسمع لها أحد ولن ينظر إليها أحد ، وصوتها مهما علا سيغرق فى ضجة الهزج والهتاف !

أو مضت فى خاطرها فكرة كما تومض الشعلة المضيئة من بعيد : إن الموقف العصيب ليس له إلا شخصية واحدة تسيطر عليه وترد تياره الرهيب .

الساحرة ! تيتى . ربة الشعاب والوهاد . ومسخرة المردة والشياطين . . تيتى هى التى توقف هذا التيار .

وراحت تنبش فى أرض الكوخ فتستخرج الصرة بعد الصرة فلقد كان لها من تلك الصرر نصيب ، حينما كان الفتى يلهيها بالذهب عن الخطر المحيق .

وقبل أن يخيم على الصحراء الظلام ، كانت فتاة وحيدة تركض مدفوعة بقوة رهيبة ، لاتهاب الليل الزاحف ، ولا الأشباح فى الجبال .

ودخلت الفتاة الشِّعب وقد خيم الظلام ، فانطلقت تجرى ، وقد خامرها الرعب وهز كيانها الخوف ، ولكنها تجرى وتجرى حتى تصل إلى الكهف ، فترتمى إليه لاهثة آيسة من النجاة ، ويقع نظرها على الساحرة العجوز فتفزع وترتاع ، وتبادر بالقاء صرر النقود إليها وهى تلهث فى ارتياع .

وفتحت الساحرة فمها فانطلق منه فحيح مبحوح :

— من القادمة فى الظلام . بلا سلام ولا كلام ؟

قالت الفتاة وهى ترتعش :

— فتاة مسكينة هجرها الحبيب وخانها الزمان . جاءت إليك تطلب رد حبيبها إليها ، والانتقام ممن بغوا عليها .

عندئذ قهقهت العجوز قهقهة فظيعة كأنها عزيف الجان ، وقالت للفتاة المسكينة :

— خذى نقودك فما بى إليها حاجة . اليوم يومى فاتركى اللجاجة . هيا اتبعينى إلى المدينة ، أيتها المهجورة المسكينة .

ثم أخذت تحجل وترقص وتردد : آن الأوان ، ودار الزمان

ثم صرخت صرخة منكرة رعيبة مديدة :

الانتقام . . . وانطلقت تعدو والفتاة وراءها حتى صارتا على أبواب المدينة .

وأدرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح .

☆ ☆ ☆

فلما كانت الليلة التاسعة قالت :

كانت الشمس — يا مولاى — قد آذنت بالشروق حينما

وصلت الساحرة تيتى ومعها الفتاة الراعية ، فانتحت الساحرة جانباً ، وأوقدت النار فى مجمرة صغيرة ، وألقت فيها بالبخور ، وأخذت تتلو التعاويذ ، وقد بدا على ملامحها فرح وحشى ، وجحظت عيناها الغائرتان ، وانتفضت جوارحها فى حركات تشنجية ، والفتاة واقفة خلفها تفرك يديها فى انتظار المعجزة التى ترد إليها حبيبها ، كما قالت لها الساحرة .

وكانت المدينة تتهيأ من الداخل لاستقبال البطل الذى أنقذها ، واستقبال الأفراح التى تنتظرها ، وكان القصر الملكى يستعد لاستقبال المنقذ العريس . أما الأميرة فكانت قد قضت شطراً طويلا من الليل ساهرة ترتقب مطلع الصبح البهيج ، ذلك الصبح الذى تلتقى فيه يقظة الدنيا بيقظة قلبها المتفتح ، والذى يسجل دورة من دورات الفلك عادية ، ويسجّل فى حياتها بدء عهد سعيد . فلما امتد بها الليل ، وأوشك الفجر ، أخذتها سنة من النوم فراحت فى سبات ، وانثالت الرؤى على خاطرها انثيالا ، وكلها ناعم وضىء شفيف . فلما قارب الموعد انبعثت النغمات الرقيقة ، وتسلل الأرج الذكى ، وتمشت الخطوات الهامسة فى البهو خارج مخدعها ، وتقدمت الوصيفة تفتح الباب لتحييها تحية

الصباح . وكانت الأميرة قد استيقظت على النغمات الهامسة ، والنفحات الأريجة ، فهمت تعتدل ولم تستو جالسة بعد فى الفراش .

وفى هذه اللحظة كان الفارس قدقارب سور المدينة ، وهو يمرق بفرسه فى لهفة ، وكأنه يطير من فوقها وهى تطير . وقبيل أن ينبعث أول خيط من خيوط الشمس كان الحراس قد تأهبوا لفتح البوابة الكبيرة ، ووقف الحرس خلفها استعداداً لتحية البطل الفاتح قاهر الأعداء ، وعريس الأميرة ، وولى العهد منذ الصباح. فلما أشع أول خيط ذهبى أخذوا فى دفع البوابة الكبيرة

فى هذه اللحظة كانت الساحرة قد انتهت من التمتمة ، وقد انعقد دخان البخور فى الجو ، وتلوى فوق المجمرة كأذرع الأخطبوط . وهنا انبعثت من فمها الأدرد صيحة مرعبة كادت الفتاة تصعق لها من الذعر ، ولم تكن إلا هـذه الكلمات وهى تشير بيدها إلى المدينة :

وقف الزمن . جمدت الحياة . وقف الزمن . جمدت الحياة .

ونظرت الفتاة إلى حيث تشير الساحرة ، فإذا الحراس الذين يفتحون البوابة قد جمدوا فى أماكنهم واستحالوا تماثيل .

والبوابة فى أيديهم قد وقفت فى منتصف الفتحة حيث كانت عندما أرسلت الساحرة صيحتها العجيبة .

وذهلت الفتاة لحظة ، فما انتبهت إلا والساحرة تقهقه كالشيطان ، فى فرح جنونى بشع ، وهى تقول :

— سحرت المدينة . سحرت المدينة . شفيت الضغينة . شفيت الضغينة .

ولم يستغرق ذلك كله إلا مدى خطوات الفارس السريعة . . . فلما كان بقرب الباب برزت له ابنة عمه ، وقد أفاقت ، فاعترضت سبيله وزعقت فى وجهه ليسمع :

— كل شىء قد انتهى . وقف الزمن . سحرت المدينة . كل من فيها تماثيل . انظر للحراس . إنهم جامدون — وهو فى سرعته الخاطفة — لم يسمع إلا قليلا ، وكاد يدوس الفتاة التى اعترضته لولا لفتة سريعة لعنان الفرس ، فتفاداها وانطلق فى سبيله ، فدخل البوابة ركضاً . ولكن البوابة لا تتم فتحتها ، وأيدى الحراس جامدة عليها ، وهيئتهم وهم يدفعونها ، وقد مالوا بوجوههم وأيديهم إلى الأمام فى عنف ، وأرجلهم مثبتة فى الأرض ، وقد انفرجت اليمنى عن اليسرى . وها هم أولاء رجال الحرس المهيأ لتحيته . إنهم

واقفون وقفة عسكرية فى استعداد للتحية ، ولـكنهم جامدون .

ورن فى أذنه صوت الفتاة ، فاستعاد ما التقطته أذنه من ألفاظها ، و بدأ يفيق قليلا ، ولـكنه يمضى فى المدينة و يمضى ، فماذا يرى ؟

رجال جامدون على هيئتهم : هذا يفتح باب داره من الداخل و يخطو برجله اليمنى ثم يقف جامداً والباب موارب . وهذا بائع وضع المفتاح فى قفل دكانه وأخذ يديره ثم جمد على هيئته ، وهذا فتح باب الدكان وهم بالدخول . وهذا فلاح يسوق ماشيته وهو والماشية قد جمدوا فى وسط الطريق . وهذه امرأة تطل من النافذة وقد بقيت على هيئتها . . . وهكذا وهكذا من مئات الصور والأوضاع والحركات ...

وحسب نفسه فى حلم مزعج ، فنزل عن صهوة الفرس ، وراح يلمس هذه التماثيل الآدمية فى توجس وخيفة ، ثم يهزها، ثم يصرخ فى وجهها ، ولا من يسمع أو يجيب . ولـكنه سار فى طريقه إلى القصر ، وهل يمكن أن يكون قد مس القصر ما مس المدينة ؟

ووجد أبواب القصر تفتح والحراس متهيئين للاستقبال . ولـكن وا أسفاه ! إنهم تماثيل . وارتجف قلبه رجفة شديدة . .

واندفع يهز الحراس و يصرخ فى وجوههم صرخات جنونية . . . ولـكن ماذا ؟ ليكن الجميع قد سحروا وجمدوا. أما هى . هى التى تنبض بالحياة والإشراق ، فلن يمسها السحر أبداً . . . واندفع يركض، و يقفز السلم صعداً فى وثبات سريعة . و يتلفت هنا وهناك فى الغرف والأبهاء : فهذا هو الملك فى طريقه إلى المائدة ولـكنه جامد على خطوته ، وهذه هى الملـكة خارجة من الحمام ، ثم انتهت خطواتها فى الطريق ، وهؤلاء هن الوصائف والخدم فى حركات الصباح ، والجميع على هيئتهم الأولى ... وزاد جنونه وهو يبحث عن مخدع الأميرة ، وكلما لقيه تمثال جامد زاده اضطرابا وفزعا ولهفة .

ثم ها هو ذا يجد حجرة الأميرة والوصيفة ببابها : رجل فى فى الداخل وأخرى فى الخارج ، فيمر الفتى من جانبها، ثم ينظر إلى فتاته . . . يا الله، إنها حية ! ها هى ذى تهم بالجلوس فى فراشها ، وقد اشرأب عنقها الجميل، وافتر ثغرها الفاتن عن ابتسامة وضيئة، وهاتان العينان ، إن فيهما لاستبشاراً وحلماً !

وانتفضت كل ذرة فيه ، وهو يندفع إليها فى جنون ولهفة فيعانقها و يصيح : ها أنت ذى وحدك التى نجوت فى المدينة !

وصعق صعقة شديدة وهو يلمس الجسد البارد ، ويحس التمثال الهامد . وندت من فيه صيحة جنونية وانطلق من الغرفة عدواً يقفز السلم قفزاً ، ويجرى إلى حيث قد ترك فرسه . فيقفز على ظهرها ، وينطلق إلى خارج المدينة ، ورمحه مشرع فى يده ، وقد انتفخت أوداجه، وامتلأت عيناه بالدم، وجز على أسنانه فى غيظ، وفارقته كل خالجة إنسانية ، فانقلب وحشاً هائجا مجنوناً .

وحينما برز من البوابة لمحته ابنة عمه التى كانت واقفة بجوار الساحرة تنتظر أوبته، وقد أحست أنها استردته.. لمحته فرأت الشر فى عينيه فأسرعت تتوارى . وإن هى إلا لحظة حتى كان قد حاذى الساحرة، وفى اندفاع عنيف أغمد الرمح فى صدرها، فخرج يلمع من ظهرها ، وهو يضرس على أنيابه قائلا : فعلتها أيتها الشيطانة !

ونطقت العجوز فى صوت متقطع :

— لو أمهلتنى لأطلعتك على السر . . . !

وكاد يجن فنزل من فوق الفرس وأخذ يهزها فى عنف وهو يصرخ :

— قولى . قولى أيتها الشيطانة . قولى .

والساحرة تردد :

الماء . الماء . الماء

فقفز إلى ظهر فرسه وأركضها ركضاً شديداً

وما كاد يتوارى حتى برزت الفتاه والساحرة تحشرج .

وخافت الفتاة أن تفصح للشاب عن السر ، فإذا بها تمد يدها إلى وسطها فتستل منه خنجراً ، تغمده فى عنق الساحره .

وفيما هى تلفظ أنفاسها الأخيرة، نطقت فى نبرات متقطعة لاهثة :

عقد السحر على حقد كظيم . و يفك السحر على حب عظيم .

وحينما عاد الفتى يحمل إناء الماء ، كان كل شىء قد انتهى فوقف أمام الجثة مذهولا .

وقف أمامها لحظات ، ثم اندفع نحو المدينة كرة أخرى . يصرخ صرخات مجنونة تشبه العواء ، فلا يجيب صرخاته إلا الصدى ، يرن فى جنبات المدينة المسحورة .

وظل الفتى — يامولاى — أياماً يجول فى المدينة و يصعد القصر ، و يدخل المخدع ، عسى أن تقع المعجزة فيبطل السحر . ولكن هيهات .

وساءت حالته فامتنع عن الطعام والشراب ، وهام فى الغابة كالوحش الذاهل ، يجول فى منعرجاتها ومنفسحاتها ، و يصعد

البرج القائم فيها . ثم يرتد إلى المدينة ، فيظل يصرخ فى جنباتها صرخات مذعورة إلى أن يدركه الإعياء ، فينطرح على الأرض حيثما اتفق : فى الطريق ، أو على عتبة دار ، أو فى منعرج من الغابة . والفتاة تتبعه حيثما ذهب ، وتلمحه عن كثب ، خيفة أن تفترسه الوحوش ، أو يموت من الجوع . وفى لحظات ذهوله تجرعه جرعة ماء ، أو تدس فى فمه لقمة أو ثمرة فاكهة ، حتى لا يقتله الظمأ والطوى .

وظل على هذه الحال أياما طويلة والفتاه الوفية المحبة تتبعه كظله ، حتى أفاق من غاشيته ، وسرى اليأس إلى قلبه ، وعلم أنه كان حلم وانتهى كما تنتهى الأحلام ، فعاد إلى حبيبته الأولى

ولاحظ ذات يوم أن الزمن فى المدينة لا يتغير ، فهو أبداً مطلع صبح . وعندئذ أدرك مع ابنة عمه معنى قول الساحرة العجوز :

وقف الزمن . جمدت الحياة
وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح .

* * *

فلما كانت الليلة العاشرة قالت :

منذ هذا الوقت — يامولاى — استحالت المدينة المسحورة أعجوبة الزمان ، وقصة كل لسان ، وتناقل الركبان أخبارها، فوفد عليها الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، ينظرون هـذه العجيبة الغريبة ، ويتذاكرون حوادثها القريبة والبعيدة . وكان أعجب شىء فيها غير التماثيل الآدمية الجامدة . ذلك الوقت الذى لايتغير ليلا ولانهاراً . صيفاً ولا شتاء ، فهو دائماً مطلع صبح ، حينما ترسل الشمس أول خيوطها الذهبية .

ودار الفلك يامولاى ثم دار ، وانقرض الجيل الذى شهد الحادثة وتلته أجيال ، والمدينة قائمة بكل مافيها ومن فيها ، وقد وقف الزمن على بابها بأحداثه وغيره ، وتقلباته وأفاعيله ، فكل مافيها على حاله ، والدنيا من حولها تتغير وتتبدل .

واستحال الزمان ، وتغيرت الدول ، فدخلت المدينة والإقليم من حولها فى المملـكة الشمالية ، ثم ظلت الممالك الأخرى تندمج حتى صارت مملـكة واحدة عظيمة .

أما المدينة المسحورة فقد قام عليها الحراس ينظمون زيارتها

للوافدين عليها من مشارق الأرض ومغاربها ، والأدلاء يشرحون للزائرين قصتها ، ويروون لهم أعاجيبها ، جيلا بعد جيل ، حتى اكتملت ألف عام ، منذ أن وقف فيها الزمان .

وفى ذات يوم قدم المدينة فيمن يقدمون كل يوم للزيارة شاب مثّال بارع . جاء يستلهم الفن الإلهى القائم فى التماثيل الآدمية بالمدينة المسحورة .

وطاف بالمدينة شارعاً شارعاً ، وبيتاً بيتاً ، فراعته هذه المجموعة العجيبة من التماثيل المبثوثة . ووقف مبهوتاً أمام ذلك الغنى الفائض فى التنويع الذى لانهاية له . فى السحن والملامح ، والقسمات والمعانى . فهناك آلاف التماثيل ليس فيها تمثال كتمثال : نساء وفتيات ، وشبان وشيوخ ، وأولاد وبنات ، من كل حجم ولون ، ومن كل طابع وشكل . ومئات الحركات ، وألوف اللفتات وأشتات لاحصر لها من المعانى الكامنة فى السحن ، الناطقة فى القسمات .

وقف ويستقرئ أشتات المعانى وأشتات الرموز ، ويتأمل

هذا المتحف الإلهى العظيم ، فأحس بالضآلة والصغر فى نفسه، وفى فنه ، وفى نفوس المثالين أجمعين .

إن جميع ما أخرجه مثالو الدنيا وما يخرجون ، لن يكون شيئاً أمام المدينة المسحورة ، وأمام الغنى الوافر فى التنويع والتصوير . ثم دخل القصر ، وسار فى أبهائه وردهاته ، وتأمل فى أهله وشخصياته . . . وقاده الدليل إلى أعظم حجرة فيه : حجرة الأميرة المسحورة . . .

وما كاد الشاب يلمح الأميرة فى وضعها الفنى الجميل ، حتى وقف أمامها مبهوتاً . . . إن أعظم مثال على هـذه الأرض لن يستطيع إخراج هذا التمثال : فى وضعه . فى ملامحه . فى قسماته . هذه الانثناءة فى ذلك الجسد الفاتن . هـذا الصدر فى بروزه الناهد . هذا الجيد المشرئب المتطلع . هذا الوجه الذى تفيض قسماته بشراً وسحراً ، هذا الثغر الذى يهم بابتسامة ساحرة . هاتان العينان الحالمتان المغرقتان فى الحلم الوضىء .

وقف الفتى لحظة مبهوتاً ، ثم خطا نحو التمثال، وكأنما يخطو فى

محراب ، ثم باعد وقارب ، والدليل يثرثر من حوله بالقصة العجيبة وهو مستغرق فى التمثال ، كأنما استحال إلى تمثال !

وظل الدليل ينتهى من القصة ثم يعيدها حتى مل ، فصمت و بدا عليه الضيق من هذا الزائر الذى ينظر ببلاهة إلى التمثال ولا يزايله ، ودخل زائرون آخرون وخرجوا ، وهو واقف وقفته الذاهلة . . . وأخيراً نبهه الدليل فى استثقال إلى أن وقت الزيارة قد انتهى . فخرج يجر رجليه جراً ، وهو يعاود النظر إلى التمثال بين لحظة وأخرى !

منذ ذلك اليوم — يامولاى — والفتى المثال ينتظر الصبح بفارغ الصبر ، لينطلق إلى المدينة المسحورة ، ثم لا يضيع لحظة واحدة فى مشاهدة التماثيل الأخرى ، إنما يقصد توة إلى مخدع الأميرة ، حيث يقف طول مدة الزيارة حيالها كالعابد المتبتل الذى يتطلع إلى إله !

وتكررت زياراته ولاحظ الحراس والأدلاء أطواره ، فلقبوه بالمجنون ، وصاروا يتغامزون عليه كلما دخل أو خرج ، وهو ذاهل عنهم بالتطلع إلى تمثاله الجميل !

وخيل إليه أنه قد حفظ فى مخيلته أدق دقائق التمثال ، فآوى إلى مرسمه يحاول أن ينحت تمثالا مثله ، وهو يمنى نفسه بالمجد والشهرة والخلود .

وعكف أياما على تمثاله الصخرى حتى أتمه ، صورة طبق الأصل من نموذجه . ثم وقف أمامه يراه . . .

ولـكن لم تمض إلا دقائق حتى أهوى بأزميله على التمثال فحطمه تحطيما وتركه جذاذاً . لقد خيل إليه أن التمثال النموذجى حى ، أما تمثاله فميت . فانطلق يعدو إلى التمثال الحى الحبيب . وفى نفسه لهفة وملء روحه اشتياق .

ودخل المخدع ، والحراس والأدلاء يتصايحون : لقد عاد المجنون . ولـكنه اندفع لايعبأ بل لايسمع . اندفع حتى وقف أمام التمثال ، ثم دنا فركع بجواره ، ثم قرب فعانق التمثال ، مغمض العينين ، تائه الحس ، موله النفس ، وجالت فى نفسه أمنية عظمى ، جمع فيها نفسه وحسه ، حتى رآها حقيقة واقعة لفرط اندماجه فيها :

آه . لو تدب فيها الحياة ! . . .

هنا يامولاى . تمت المعجزة الكبرى . لقد انتفض التمثال

الجامد حياً ؟ والفتى مغمض العينين تائه عن الوجود ، وحينما أحس بحرارة الجسد الهامد بين يديه كان لايزال في غيبوبته ، يطالع حلمه الذى يغمر نفسه . فما راعه إلا صوت قريب منه وصوت آخر بعيد :

صوت يجاور أذنه : يالله ! كيف قد جئت وأنا لا أدرى ؟ !

وصوت بجوار الباب : رباه ! شاب فى مخدع الأميرة !

كانت المعجزة قد تمت يا مولاى . ففى اللحظة التى انتفض فيها التمثال الجامد حيا سرت الحياة فى القصر و المدينة جميعاً . وكانت الوصيفة القائمة بالباب تنظر فترى الفتى فى مخدع الأميرة ، وكانت الاميرة تنظر فترى الشاب ، وهو هو فتاها . (فهو من نسله وهو شبيهه)

وكاد يجن . وهو يبصر المعجزة الكبرى . وجمدت الالفاظ على شفتيه ، إلا جملة واحدة ظل يرددها ساهما حالما مبهوتا :

وقعت المعجزة . وقعت المعجزة . . .

وعجبت الأميرة : ما باله هكذا مبهوتا مأخوذاً . وحسبته يذكر معجزة النصر على المغيرين ، أو معجزة التقائه بها بعد اليأس والقنوط . فراحت تقول :

وقعت وقعت . ولكن كيف دخلت ها هنا . وأنا لا أدرى ؟
وما هذه الملابس التى ترتديها ؟ ومالك هكذا مبهوتا ؟

وهو ماض فى ترديد الجملة الوحيدة التى يملكها

ولما يئست من أن يرد عليها بشىء . قالت :

— إذا لم تستطع أن تتكلم فاعزف لى لحن الغابة !

وهمت واقفة فطوقته بذراعيها . فأجفل منها لحظة ، ثم اندفع يضمها ضماً شديدا . . .

أما الوصيفة التى راعها ما شاهدت ، فقد انطلقت تعدو إلى الملكة تخبرها . وما كادت تقبل حتى وجدت بعض الحراس يهرعون إلى الملك فى ذعر شديد ، يعلنون إليه نبأ اقتحام المدينة بمخلوقات كثيرة من أجناس لم يروها من قبل أصلا !

وكان الذى حصل أن فوجىء المتفرجون بالحياة التى دبت فى المدينة فى اللحظة الاولى . وفوجىء المبعوثون بهؤلاء الغرباء الذين لم يروهم من قبل أبداً . وتنبه حراس القصر والمدينة القدماء فحسبوا المغيرين قد ارتدوا على المدينة ، فانثنوا يعملون فيهم أسلحتهم دفاعاً عن مليكهم ومدينتهم . وعم الذعر أولئك الزائرين وهم يرون التماثيل تحيا ، وتثخن فيهم جرحاً وقتلا .

وتعالت الصيحات من كل جانب ، وهرب من الزائرين من هرب ، وأخذ منهم بعض الأسرى !

وجى بالأسارى أمام الملك ، وهم فى فزع وذهول ، وقيل للملك : هؤلاء بعض المغيرين أما الآخرون ففروا فراراً !

وأخذ الملك فى استجوابهم عن بقية الجيش المغير ، وكيف خدعوا المدينة وأهلها فهربوا ثم عادوا ؟ . . . وفى خوف يعقد الألسنة وذهول يحير العقول ، حاول المساكين أن يفصحوا عن المعجزة التى وقعت بين أيديهم منذ لحظة . فوقع بيانهم من الملك وحاشيته موقعاً عجيباً . وحسبوهم يهزأون بهم ، كما ظنوا بعقولهم الظنون . . .

وكان الخبر العجيب قـــد ترامى إلى سلطات المملكة من الحراس الذين هربوا ومن الزائرين الذين نجوا ، فأقبل الحكام والوزراء والأهالى والعساكر لرؤية المعجزة الكبرى . أما الذين هم داخل المدينة فلم يجل فى خاطرهم إلا أن جيوش الأعداء قد هجمت مرة أخرى ، ورأوا لكثرة الهاجمين أن لا مفر من التسليم !

وكان انتشار الخبر قد هز البلاد هزاً ، فوفد الناس من كل جهة ، وراحوا يتطلعون فى دهش إلى هؤلاء الآدميين الغرباء

ولم تمض يا مولاى إلا ساعات انطلق الزمن فيها من عقاله حتى بدا على هذه المخلوقات فعل ألف عام ، فإذا هم يتهاوون جثثاً هامدة ، وعظاماً نخرة ، ورفاتاً سحيقاً . والناس من حولهم فى ذهول شديد .

أما الأميرة — يا مولاى — فقد وقف الزمن إزاءها عاجزاً . لقد كانت تحب . وماذا يصنع الزمن — يا مولاى — فى قلب يحب ؟